لو كان للمرء فكر فى عواقبه
ما شاب أخلاقه حرص ولا طمع
وكيف يدرك ما فى الغيب من حدث
من لم يزل بغرور العيش ينخدع
دهر بغر وآمال تمر وأعـ
ـمار تمر وأيام لها خـدع
يسعى الفتى لأمـور قد تضربه
وليس يعلم ما يأتى وما يدع
يا أيها السـادر المزور من صلف
مهـلا فأنك بالأيام منخدع
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
لعل قلبك بالإيمـان ينتفع
إن الحياة لثوب سـوف تخلعه
وكل ثوب إذا ما رث ينخـلع

وظل البـارودى بعـد عودته من المنفى فى عزلة عن الناس . لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة من الأدباء والشعراء والحافظين لعهده . إلى أن أدركته الوفاة سـنة ١٩٠٤ . تخلف مجدا لا يبلى على الزمان

غبد الرحمن الرافعى

٤٠٠١٩

غرارة ملقـــاة

للأستاذ محمود محمد شاكر

إليك عنى ، أيتها النفس ، فأنا وأنت كما قال عبيد ابن الأبرص :

إذا أنت حملت الخؤون أمانة فإنك قد أسندتها شر مسند

وقد أبيت على أن أكتب ما كنت أريد ، لأنك أردت أن تكونى لى على غير عهدى بك منذ ساعات قلائل . فدعينى أحدث عنك بما أسررت من مضمر أو مكنون

ما كدت أجلس إلى مكتبى حتى تبعثرت خواطرى ، وتهاربت منى أفكارى ، وانتشرت على عزيمتى ، وتفرقت عنى إرادتى ، وتطـايرت فى الآفاق سواكن نفسى ، وغادرتنى همتى ، وكأنى غرارة ملقاة على مدب الحيـاة . وربما هجس فى نفسى الهاجس ، فما أكاد أقول : هذا هو ! حتى أجدنى على جناح أمر آخر ، وإذا بينهما مسيرة ما بين مشرق الشمس ومغربهـا . فأين المفر ! وكيف القرار ! لا أين ولا كيف ! بل ألتمس مذهبا لا غاية له ، لعلى واجد فيه بعض ما أسرى به حيرتى : أن أقيد ما يعن لى — أم ينبغى أن أقول : أن أقيد ما أعن أنا له — على عجل ، وبلا ترتيب ، وكما يتفق

ولـكن ما نفع هذا لك أنت أيهـا القارئ ؟ هل يعنيك شيئا أن تطلع على حيرة نفس فى ساعة من حياتها ؟ أم هل يجدى عليـك أن تطلع ؟ بل مالى ولك ! أترانى أكتب لأنفعك ؟ ما أسخف هذا ! وماذا عندى مما تنتفع به ؟ كيف أستطيع أن أدعى أنى أنفع بالذى أكتب آلافا من القراء مثلك ؟ وأنى لى علم هذا السـحر : أن أجمع فى أسطر معدودات حاجة كل نفس ؟ أوليس من السـخف ، ومن الغرور أيضا ، أن يزعم امرؤ أنه يملك القدرة على نفع أحد ، فضلا عن آلاف ؟ وما أملك إلا أن أسارحك بأنى ما كتبت قط إلا لنفسى وحـدها ، ثم لا ألبث أن أعرض عليك ما أكتب — لا لأعلمك أو أنفعك ، بل لتعرف كيف يفكر إنسان مثلك ! وكيف يخطئ وكيف يصيب ! وكيف يصدق وكيف يخون ؟ فإذا كان ذلك كذلك فلا بأس عليك إذن ، إذا تصفحتنى فى ساعة من شتاتى وحيرتى ، كما تتصفحنى فى ساعة هدأتى وسكينتى

* * *

كيف ! هل يمكن هذا ؟ هل يمكن أن يصبح الإنسان غرارة ملقاة على مدب الحياة ، ثم هى إنسان يحس بالحياة

وأحيائها يمرون عليه غادين أو رائحين . هذا واطئ يطؤه ، وهذا مقتحم يقتحمه ، وهذا ذاهل عنه وفي عينيه نظرة التأمل ، وهذا متلفت إليه يرمقه كالمتعجب ! وكلهم لا يبالي . وهو أيضا لا يبالي أن يكون ما كان : غرارة ملقاة على مدب الحياة والأحياء

وما دامت الغرارة الملقاة تحس بالحياة وأحيائها يمرون عليها غادين أو رائحين ، أفليس هذا حسبها من الحياة وأحيائها ؟ وما الحياة ؟ هل الحياة إلا إحساس محض ؟ إحساس بالألم ، وإحساس باللذة . إحساس بالرضى ، وإحساس بالسخط . إحساس بالجمال ، وإحساس بالقبح . إحساس بالنور ، وإحساس بالظلام . إحساس بالشبع ، وإحساس بالجوع . إحساس بالحلو ، وإحساس بالمر . إحساس بالشذا الطيب ، وإحساس باللخن الكريه . إحساس مجرد مرهف نافذ لا يعوق نفاذه شيء . إحساس حر كشعاع الشمس

أوهؤلاء الغادون والرائحون أعرق في حس الحياة من الغرارة الملقاة على مدبها ؟ وما الحركة التي تسير بهم غادين أو رائحين ؟ أهي تزيد الإحساس وتضاعفه ، أم هي تنقص منه وتتحيفه ؟ أوليست الحركة شاغلا يشغل عن تجريد الإحساس وإمحاض للمحسوس ؟ وأيهما أنفذ : غرارة ملقاة يستغرق حسها نابض الحركات حتى تظل حية هامدة ، أم غاد ورائح ، تتخون الحركة من حسه حتى يكل مرهفه ويفل مضاؤه ؟

* * *

بل كيف يستغرق الحس الحركة ؟ يا عجبا كل العجب ! إنه أمر لا يكاد يدركه إلا من مارسه في سريرة نفسه . لذة لا توصف ، ولكنها تعقب أحيانا ألما لا يستقر . لذة تتملى بها وحدك ، وإذا هي تنسرب بك إلى جنة مونقة تدلت عليك بأثمارها . أما الألم ، فهو الذي يلذعك إذا روعك عن استغراق حسك طارق لم تكن تتوقعه

أجدني أحيانا في أمر والناس معي ، ثم يستغرقني عنهم حس أنفرد به ، وإذا أنا معهم ولست معهم . ثم ينبري سائل فيسألني عن شيء غير الذي أنا فيه ، فأنتبه كالمذعور ، ويختلط علي ما أنا فيه بما سئلت عنه . وعندئذ أرى كل شيء يفر مني كأني ما عرفته من قبل ، ويأخذني ما قدم وما حدث ، ويخرجني التنبه قسرا من استغراق الحس إلى حركة لم أتهيأ لها ، وتتضارب على لساني كلمات لم أردها ، وأقول ذاهلا ، ما لو تأنيت قليلا حتى أستقر لما قلته . إنه قول منزعج عن حقيقته ، لو اطمأن لاستقام على وجهه . فمن لي بمن يحس بما أحس به ، حتى يتفق حسي وحسه ، ثم يقظتي ويقظته !

* * *

أمن الممكن حقا أن تجعل إنسانا يحس بما تحس به ؟ باطل محض . الحس عمل متصل لا ينقطع ، بعضه يأتي في أعقاب بعض . أجل ، ليس من الممكن أن تفرغ نفس إنسان من ماضي إحساسها ، وتفرغ نفسك من سالف إحساسها ، كي تبتدئا معا ، وتسيرا معا إلى النهاية . هذا مستحيل . وإذا استحال ، فيستحيل معه أيضا أن تجعل إنسانا يحس بما تحس به . نعم قد يستقيم في بعض الكلام أن تقول لأخيك : « إني أحس بما تحس به » ، ولكنك تعني عندئذ أنك توجهت بإحساسك إلى شيء كان إحساسه قد توجه إليه . أما لو ظننت أن إحساسك بمثل إحساسه ، فهذا باطل . وألفاظ اللغة تضلل من لا يتوقى مجاهلها

* * *

كل امرئ منا عالم وحده ، لأنه يحس إحساسا واحدا لا يشركه فيه أحد من بني جلدته . وكل امرئ منا هو في أصل طبيعته يعيش في خلوة تامة — في غرفة مغلقة الأبواب . وإذا فسدت عليه هذه الخلوة ، فسد إحساسه بالحياة وأحيائها . وإذن ، فمن الإثم والمدوان ، أن تحتال على أحد ، متوهما أنك قادر على أن تجعل إحساسه بالأشياء كإحساسك . إنك آثم لا محالة . إنك تفسده

وتفسد عليه حياته . إنك تعنف به حتى يخرج من خلوة الفطرة من حرية الحس . نعم ، بل أنت تتلذذ باستلحاقه فى إحساسك ، تتلذذ بخضوع سر حريته لسطوتك ، تتلذذ تلذذا بشعا باستعباده !

* * *

باطل الأباطيل أن يحس جماعة من البشر بإحساس واحد . إنه خلط قبيح . إنه إذلال كل فرد لطاغوت مكذوب يقال له الجماعة . كل امرئ منا له حس منفرد ، يجرد للاحساس لشئ واحد ، هو ما انطوت عليه هذه الحياة الدنيا ، كما فطرها فاطر السموات والأرض ومن فيهن . والذى يجمع البشر فى هذه الحياة ، هو هذه القضية المركبة : حس ينفرد به كل امرئ منهم ، يتجرد للاحساس بعالم واحد يتعايشون فيه . العالم الواحد هو الذى يربطهم ، لا تطابق إحساسهم تطابقا تاما أو غير تام

والإنسان ليس مدنيا بالطبع ، كما يزعم الزاعمون ، بل هو مدنى بالضرورة . والضرورة هى هذا العالم الواحد الذى نعيش فيه ، والذى لا فكاك منه إلا بحسام المنية . هذا العالم الذى يأسرنا ، هو وحده الذى يربط بيننا ، وهو وحده الذى يؤلف بين هذه الأحياء المحسة به ، وكل حى منها منفرد بإحساسه ، مستقل به وحده

لا يتطابق حسان بإحساس واحد أبدا ، بل يتطابق حسان على الإحساس بشئ واحد ولا مفر . وهما قضيتان مختلفتان فى أصلهما ، مختلفتان فى نتيجتهما

* * *

أنبل جهدك أن توقظ إنسانا حتى يحس ، وسبيلك أن تفطن إلى شئ واحد : هو أنك أحسست بهذا الشئ أو ذاك . فإذا فطن له ونهيأ أن يحس به ، فذلك حسبك وناهيك . غايات الغايات : أن توقظ حسه لكى يحس . والذى لاريب فيه ، أنه سيحس بغير الذى أحسست . هذا غاية جهد أعلم العلماء وأبلغ الأبناء ، وهو الأمانة التى كتب عليه أن يؤديها بما آتاه الله من علم وبيان . فإذا جاوز هذا إلى أن يحتال عليك ويختلك ويماسحك ، ثم يتلصص إلى خلوتك ليضع فيك إحساسه ، لكى تبلغا « اتحاد الإحساس » فاعلم أنه لم يزد على أن أفسدك وشوهك . فاحذره . إنه يستعبدك ! إنه يميت إحساسك ! إنه يتركك تقلد الحس وأنت لاتحس ، كالببغاء تقلد الكلام وهى لا تتكلم !

هذا إثم يرتكبه كثير من الجماعات ومن أصحاب المذاهب . يزعمون إصلاح الناس ، وحقيقة فعلهم تخريب الناس ، وإماتة الإحساس الحى ، واستعباد الحس الحر المنفرد فى كل نفس . إنه تدمير الفطرة فى سبيل الجماعة ، أو فى سبيل المذهب ، أو فى سبيل الدولة ! حذار من فتك هؤلاء الفتاك ، وإن جاؤوك فى ثياب النساك

* * *

صورة الإنسان واحدة ، مذ كان الناس على الأرض . الآلاف بعد الآلاف منذ أقدم الدهر . بنية واحدة بها يعرف الجنس أنه « إنسان » ، ولكنهم متباينون ، فلا يتشابه إنسانان أبدا . وكذلك الحس أصل واحد فى كل إنسان ، ولكن يتباين الحس ، فلا يتشابه حسان أبدا ، ولا يتطابق إحساسان البتة

لاحيلة لأحد حتى يستطيع أن يدمج إنسانا فى إنسان ولو رام ذلك أحد لدمرهما جميعا . أما الحس ، فبالختل يتطابق ، وبالخداع يندمج . ختل هو القسر ، وخداع هو الاعتساف . ولا يتم ذلك إلا بتشويه الحس وتدميره . والذى هون على الناس أمر هذا التشويه والتدمير ، هو أن من الممكن أن يعيش المرء حياته بحس مدمر خرب ، وإن كان مستحيلا أن يعيش بصورة مدمرة خربة

ومن هوانه على الناس ، أن يفعله غير متحرج أكثر الآباء والأمهات ، وأكثر المعاهد والمدارس ، وأكثر الجماعات والمذاهب والدول . يدمرون حس الإنسان بالختل والخديعة ، حين يزعمون إصلاح الناس بتطابق إحساسهم واندماجه . يدمرون الحس لأنه باطن ، ولأنه لا قوام له